مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد5 ، العدد9، (مارس 2017)
ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

دراسة لغوية تطبيقية للأفعال الكلامية في سورة الكهف

أ. خلوفي
قدور
جامعة الجزائر2

ملخص

إن محاولة استخراج الأفعال الكلامية و تحديد مستوياتها التركيبية التداولية إنما هي محاولة لتبيان ما في لغة القرآن من طاقة دينامية تكشف عن قدرات تعبيرية سواء في نسقها الاصطلاحي المعروف أو في أنساقها اللغوية المضمرة القادرة على استنباط مصطلحات جديدة تكفي لترجيح الدلالة المنشودة التي تستجيب لواقع القراءة المزامنة و توجيه البحث القرآني وجهة كلية تجعل النص القرآني على حدّ تعبير الزركشي "آية واحدة".

Résumé

La Tentative d'extraire des actes de langage et de déterminer les nivaux délibération synthétique est une tentation de montrer ce que la langue du coran à comme puissance dynamique révèle capacités graphiques à la fois dans la coordination mise en forme connue ou linguistique idiomatique implicites capables de concevoir de nouveaux actes de langage pour faire pencher la signification désirée qui répondent à la réalité de synchronisation lecture et de diriger la recherche coranique dite selon les mots de Zarkachi « Un verset ».

تمهيد :

لاشك أن المتكلم بقدر ما يفصح بطريقة مباشرة عن مضمون كلامه عبر أنساق تعبيرية يعتمد- أيضا- على أشكال لغوية مجازية تجعل القارئ يتفاعل معها بشكل تذوقي ليتسابق مع حيثيات الخطاب وليتحاور معها إن على مستواها التركيبي أو مع موضوعاتها المفهومية التأويلية؛ و من بين هذه الأشكال اللغوية الاستعارة و الكناية و التشبيه؛ و هو قسم من المجاز يعتبره ابن قتيبة قاسما مشتركا بين اللغات و ضرورة من ضروريات التعبير عن المعاني و الدلالات، فقد" تبيّن لمن عرف اللغة أن القول يقع فيه المجاز، فيقال: قال الحائط فمال، و قل برأسك إليّ، أي أمله، و قالت الناقة، و قال

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

البعير" ([1])و يمضي ابن قتيبة في شرحه هذا معتبرا المجاز مختزلا للصور البيانية وخاصية لغوية قبل كل شيء ، فيقول:"و أما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب، لأن الجدار لا يريد و القرية لا تُسأل، وهذا من أشنع جهالتهم و أدلّها على سوء نظرهم و قلّة أفهامه، و لو كان المجاز كذبا وكل فعل ينسب إلى غير الحيان باطلا، كان أكثر كلامنا فسادا.." ([2]).

إذن لا مشاحة من الإقرار بأن ثمة منحى تداولي و تأويلي في الخطاب القرآني، و لذلك سنتوقف عند بعض الأفعال الكلامية غير المباشرة التي وردت في سورة الكهف والتي تحتاج من المتلقي إلى حركة ذهنية استدلالية دقيقة تفضي به إلى استنباط الحكم و ترجيح الدلالة الصحيحة و منها:

1-**الاستعارة:**يعرّفها السكاكي بأنها" ذكر أحد طرفي التشبيه و تريد به الطرف الآخر، مُدّعيا دخول المشبّه في المشبّه به، دالاّ على ذلك بإثباتك للمشبّه ما يخص المشبّه به"([3]) ، و ذلك أن المستعار منه يجمع أكثر من صفة، وفي هذا اقتضاب شديد وتأدية للمعنى الذي يقتضيه المقام؛ و يرى الزركشي حقيقتها في" أن تستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يعرف بها، و حكمة ذلك إظهار الخفيّ و إيضاح الظاهر الذي ليس بجليّ أو بحصول المبالغة أو للمجموع"([4]).

ويذهب سيرل Searle في كتابه"المعنى والعبارة" Sens et expression، وهو ممّن يهتمون بالصورة الفنية في إطار التداوليات إلى ضرورة التفريق بين المعنى الحرفي Sens Littérale و معنى المتكلم Sens figuré و عرّف الاستعارة بأنها :" تُجسد مثالا جوهريا لاستعمال اللغة، إذ يُدركُ منها عادة معنى مقصودا يقع وراء البنية المنجزة للملفوظ أو الجملة؛ و بهذا فإن الاستعارات تبدو مرشحات قوية للتحليل التداولي "([5]) و يسترسل في موطن آخر من الكتاب موضحا مفهوم الاستعارة قائلا: " و في الحقيقة فإننا عندما نتحدث عن معنى إستعاري لكلمة أو عبارة أو جملة ، فإننا نتحدث عمّا يمكن للمتكلم و هو يتلفظ بها ، أن يعنيه بطريقة تبتعد عما تعنيه هذه الكلمة أو العبارة أو الجملة في

---

[1] -ابن قتيبة : مشكل تأويل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1981، ص 109.

[2] -المصدر نفسه، ص132.

[3] -السكاكي: المفتاح، ضبطه و كتب هوامشه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987،ص 369.

[4] -الزركشي: البرهان في علوم القرآن، خرج حديثه مصطفى عبد القادر عطا،دار الفكر، بيروت،2005،ج3،ص 409.

[5] -John Searle : Sens et Expression, études et théorie des actes de langage, traduction et préface par Joëlle Proust, Les éditions de minuit, 1982, P152.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الواقع إننا نتحدث إذن عن النوايا الممكنة للمتكلمين "([1]). يقول الله تعالى: " جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ "([2])؛ يشرح السيوطي هذه الصورة الفنية قائلا :" شبّه ميلانه (أي الجدار) للسقوط بانحراف الحي، فأثبت له الإرادة التي هي من خواص العقلاء" ([3])؛ فحذف المشبه به الذي هو المستعار (الإنسان) و رمز إليه بأحد لوازمه و هو الميل و الانقضاض فهي من قبيل الاستعارة المكنية و هي صورة تصف موقف الرجل الشجاع الذي " همّ " بإقامة الجدار في قرية لم يُقدّم أهلها الطعام لهما (موسى و الرجل الصالح) وهما جائعان، و مع ذلك أقامه بفعل خارق للعادة بأن أشار بيده كالذي يسوي شيئا ليّنا كما ورد في بعض الآثار([4]).

فالاستعارة آلية لغوية مهمّة تُستخدم في انجاز الأفعال الكلامية غير المباشرة، فعندما قال جلّ ذكره : " جدار يريد أن ينقض فأقامه" أراد من خلال هذا المنطوق الاستعاري أن يشير إلى اقتراب سقوط و انقضاض الحائط ؛ و لعل عملية استدلالية دقيقة قد تفضي بنا إلى عدم التعامل مع المعنى الحرفي للنسق اللغوي للآية ؛ بل مع عناصر من السمات الدلالية لكلمة " ينقض " باعتبارها وحدة دلالية. فالسمات الدلالية لكلمة " ينقضّ " هي الميل و السقوط و الانقضاض التي يتوصل إليها المتلقي اعتمادا على قرائن سياقية وكفاءة لغوية التي تؤدي به إلى ترجيح قصد الآية الكريمة و فهمها فهما صحيحا دون الالتجاء إلى الإحاطة بمعاني أخرى حتى يتسنى له الوقوف عند الفعل الكلامي غير المباشر وهو الميل والانحراف؛ و لذلك " قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى ممّا نحسّه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي ، إن للاستعارات ذات الدور الحجاجي خاصية ثابتة فالسمات الدلالية المحتفظ بها في عملية التخيير الدلالي الذي تقوم عليه الاستعارات هي سمات قيمية "([5]) ؛ و لذلك يعتمد المتكلم على الاستعارة لأنها تمتلك قوة توصيل المعنى و اختزال معان سياقية متعددة بقليل من العبارات ، و لربّما ذلك راجع - أيضا- إلى

---

[1]-Ibid ; P 122.

[2] -سورة الكهف، الآية رقم 77.

[3] -السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، خرج أحاديثه فواز أحمد زمرلي،دار الكتاب العربي،بيروت،2004،ص573

[4] -ينظر الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير و التنوير، دار التونسية ، تونس، 1984، ج16، ص8.

[5] - ميشال لوجيرن: الاستعارة و الحجاج، مجلة المناظرة، المغرب، السنة 2، ع4، شوال 1991، ص88/87.

Et voir John Anscombre et o. Ducrot : L'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga, Liège, P 162/168.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ارتكازها على المستعار منه ليغدو بعد ذلك أكثر مرونة و سلاسة في إقناع المتلقي، و الدليل على ما نقول يمكن أن نستشفه من خلال تحليلنا للآية الكريمة في قوله تعالى:"وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ"([1])، فيقول القزويني شارحا هذه الصورة الفنية:" فإن المستعار منه حركة الماء على الوجه المخصوص و المستعار له حركة الجن و الإنسان أو يأجوج ومأجوج و هما حسّيان، والجامع لهما ما يشاهد من شدة الحرّ والاضطراب " ([2])؛ و قال ركن الدين الجرجاني: "استعار موج الماء لحرة الإنس و الجن و يأجوج و مأجوج بجامع الهيئة المخصوصة و الكل محسوس"([3]) ؛ و يقول الطبري في سياق الآية ذاتها: "و تركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، الضمير في تركنا لله تعالى أي تركنا الجن و الإنس يوم القيامة يموج في بعض، و قيل: تركنا يأجوج و مأجوج يومئذ أي وقت كمال السدّ يموج بعضهم في بعض ؛ و استعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة و تردد بعضهم في بعض كالمولهين من همّ و خوف، فشبّههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض "([4]). لعل هذه الاستعارة تُجسد لنا مشهدا مهيبا من مشاهد يوم البعث و هو اضطراب و اختلاط يأجوج و مأجوج و أتباعه متدافعين كتدافع الموج ، فسار فسادهم قاصرا عليهم و دفع عن غيرهم ، فالمستعار له لفظ " الموج " و هي حركة المياه ، وظّفت في مشهد تدافع الكفار و اضطرابهم في غير انتظام و في غير انتباه، أما المستعار منه فتجسد في يأجوج و مأجوج وما اتصفوا به من فساد، و لفظ "يموج" إنجاز لفعل كلامي غير مباشر و هو الهلاك والدمار، والاستعارة تصريحية لكون المشبه به مذكورا.

إن مثل هذه الاستعارات يُقدّمها المتكلم بوصفها إحدى الصور التعبيرية والتخيلية الأكثر إقناعا لأنها " تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه خطابه و بقصد تحقيق أهدافه الحجاجية ؛ و الاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين و بسياقاتهم التخاطبية والتواصلية؛ بل إنها من الوسائل التي يعتمدها المتكلم بشكل كبير جدّا ما دمنا نسلم بفرضية الطابع المجازي للّغة الطبيعية" ([5]). و لا تقتصر

---

[1] -سورة الكهف، الآية رقم 99.

[2] -القزويني: الإيضاح ، تحقيق و تعليق غريد الشيخ محمد ، إيمان الشيخ محمد ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2004، ص208/207.

[3] -محمد الجرجاني: الإشارات و التنبيهات في علم البلاغة، علق عليه و وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2002، ص 174.

[4] -الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، خرج أحاديثه محمود محمد شاكر، دار المعارف،مصر، ج18، ص259

[5] -أبو بكر العزاوي: نحو مقاربة حجاجية للإستعارة، مجلة المناظرة، المغرب، ع4، 1911، ص 83/81.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الاستعارة على صورة واحدة؛ بل تتّخذ صورا عديدة منها صنف الاستعارة التهكمية استخفافا و استهزاء بالمخاطب، ويعرّفها السكاكي بأنها" استعارة أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضاد و إلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكّم أو التلميح، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر والإفراد بالذكر و نصب القرينة و يختص هذا النوع باسم الاستعارة التهكمية أو التلميحية"([1])؛ يقول الله تعالى:" إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَ " ([2])، يشرح الطاهر بن عاشور هذه الآية فيقول: " السرادق هو الفسطاط، أي الخيمة و قيل الحجرة أي الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها،و السرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار و أثبت لها سرادق مبالغة إليها في إحاطة الدار بهم ، و شأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية و الإغاثة مستعار للزيادة مما استغيث من أجله على سبيل التهكم و هو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده"([3]).

لاشك أن هذا الخطاب يشير بطريقة ضمنية إلى فعل كلامي تهكمي غير مباشر لا يدرك أبعاده إلا المتلقي الذي يستطيع استبعاد المعنى الحرفي من خلال عملية ذهنية استدلالية للقبض على الدلالة المضمرة العميقة؛ فتوظيف لفظ "السرادق"و إثباته كجدار من النار لدار أهل العذاب إنما هو استهزاء و تهكّم للظالمين ، و لأن " السرادق " على حدّ قول ابن عاشور مقصورة على البيوت الفارهة ليمنع الدخول إليها خلسة ، و استعمالها بهذا المعنى و في هذا السياق بالذات سوى لإنجاز فعل التهكّم بصورة خفيّة، ولأن التهكّم أساسا " في مصطلح علماء البيان هو عبارة عن إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال استهزاء بالمخاطب "([4]) و يقول سيرل Searle في معرض حديثه عن الفرق بين التهكم و الاستعارة قائلا:"إنّه من الضروري ملاحظة أن التهكم مثل الاستعارة، لا تتطلب أيّ عرف من الأعراف أو علامات مصاحبة أو خلافها وذلك لأن مبادئ الحوار و كذلك قواعد انجاز الأفعال الكلامية تكون كافية لتكون مبادئ أساسية للتهكم " ([5]). و يقول الله

Et Voire Philipe Breton : L'argumentation dans la communication, édition la découverte, Paris, 1996, P34.

[1] -السكاكي: مفتاح العلوم، ص 375.

[2] -سورة الكهف، الآية رقم 29.

[3] -تفسير التحرير و التنوير، ج15، ص 308.

[4] -يحي بن حمزة العلوي: كتاب الطراز، مراجعة وضبط و تدقيق محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ص 476.

[5] -Searle:Sens et expression, P162. Cependant, il faut bien observer que, pas plus que la métaphore, l'ironie ne requiert de convention, qu'elle soit extralinguistique ou autre. Les principes de la conversation et les règles générales gouvernant les actes de langage suffisent à fournit les principes

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

تعالى في سياق حديثه عن ذي قرنين:" فَأَتْبَعَ سَبَبًا"([1])، يُفسّر ابن عاشور: " فَأَتْبَعَ سَبَبًا" قائلا: " أي الوسيلة و المراد هنا معنى مجازي و هو الطريق لأن الطريق وسيلة إلى المكان المقصود و قرينة المجاز ذكر الإتباع و البلوغ في قوله :"فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس"و الدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله : " و لآتيناه من كل شيء سببا" إظهار اسم السبب دون إضماره، لأنه لما أريد به معنى غير ما أريد بالأول حسن إظهار اسمه تنبيها على اختلاف المعنيين أي فاتبع طريقا للسير وكان سيره للغزو كما دلّ عليه قوله : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس "([2])؛ فالمعنى الذي يقع وراء البنية المنجزة في هذه الآية هو المعنى غير الحرفي، و لذلك استنادا لقرائن سياقية و قدرة استدلالية يستطيع المتلقي أن يتوقف عند معان ممكنة للفظ " سببا " الوارد في الآية الكريمة ليحصرها في معنى فعلي يدلّ على الوسيلة أو الطريق، و القرينة هي الفعل " أتبع " أي اتّبع طريقا لشن حرب على المعتدين؛ إذن ظاهر الآية ينفي الأخذ بحرفية اللفظ (سببا) و يأخذ بالدلالة الخفية التي اقتضاها السياق العام و هو انجاز فعل الغزو بصورة غير مباشرة حيث يوجد ارتباط لزومي للمعنى بين الطرفين.

2-**الكناية:**يعرّفها السكاكي بأنها: " ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كقولك: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه و هو طول القامة، و سمي هذا النوع كناية، لما فيه من إخفاء وجه التصريح " ([3])؛ يذكر الزركشي بأن الكناية" عند أهل البيان أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة و لكن يجيء إلى معنى هو تاليه و رديفه في الوجود، فيؤمن به إليه ، و يجعله دليلا عليه ، فيدل على المراد من طرف أولى ، مثاله قولهم : " طويل النجاد" و "كثير الرماد " يعنون طول القامة و كثير الضيافة ، فلم يذكروا المراد بلفظه الخاص به و لكن توصلوا إليه بذكر معنى لآخر هو رديفه في الوجود : لأن القامة إذا طالت ، طال النجاد و إذا كثر القرى كثر الرماد"([4]).

و يتّضح من تعريف الكناية أنها واقعة في المجاز ومعدودة منه، فهي تُعبّر عن دلالة الألفاظ عن طريق المجاز ، و لذلك رُشّحت أن تكون إحدى الآليات اللغوية المهمّة في إنجاز الأفعال الكلامية غير المباشرة، قال

---

fondamentaux de l'ironie » et voire Georges Vigneaux :L'argumentation du discours à la pensée, Hatier, 1988,P52/59.

[1] -سورة الكهف، الآية رقم 85.
[2] -تفسير التحرير و التنوير، ج16، ص 28.
[3] -السكاكي: مفتاح العلوم، ص 402.
[4] -الزركشي: البرهان في علوم القرآن،ج2، ص 314.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

المولى تعالى:" فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا"([1])؛يشرح ابن كثير" فضربنا" فيقول:" ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة"([2]) ؛ و يُفسّر الطبري قوله تعالى " فضربنا على آذانهم " قائلا : " هو عبارة عن إلقاء تعالى النوم عليهم ، و هذه من فصيحات القرآن التي أقرّت بالقصور عن الإتيان بمثله قال ابن عباس :" ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها"([3]).

نستنتج من خلال هذه البيانات أن الخطاب القرآني لا يقصد من الفعل " فضربنا " نسقه المعجمي ألإفرادي مع إمكانية وروده، و إن كان ذلك مستبعد و غير مقصود، لأن السياق العام الذي ورد فيه الفعل يفرض على المتلقي كفاءة ذهنية للربط بين لفظ الخطاب وقصد الله تعالى الذي استلزم ترجيح فعل كلامي غير مباشر و هو إلقاء أو وضع على آذانهم حجابا . و يمكننا التوقف على صورة فنية أخرى من خلال قوله تعالى:"فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا"([4]) ؛ قال الفخر الرازي حين قدم على تفسير هذه الآية ما يلي:" فأصبح يقلب كفيه و هو كناية عن الندم و الحسرة، فإن من عظمت حسرته يُصفقُ إحدى يديه على الأخرىّ وقد يمسح إحداهما على الأخرى و إنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنّة التي وعظه أخوه فيها و عذله"([5])؛ و يقول ابن عاشور في نفس السياق: " تقليب الكفيّن حركة يفعلها المتحسر ، و ذلك أن يُقلّبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته تحسرا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة و هو كناية عن التحسر"([6]).

لاشك أن الجانب غير المباشر هو سمة مشتركة بين الطرفان الكناية و الأفعال الكلامية غير المباشرة، فقوله تعالى:"يُقلّب كفّيه" كناية عن حسرة الرجل و ندمه على إشراكه بالله تعالى، فالآية لا تشير إلى الدلالة الظاهرة؛ بل إلى معنى غير مُصرّح به و هو وصف حزن الكافر وأسفه على ماله الضائع وتلف الثمار و بوارها.وإذا حاولنا تتبع خطوات الاستدلال اللازمة للربط بين الفعل الكلامي" يُقلّب" و بين قصده تعالى يستلزم عددا من العمليات الذهنية تفضي بنا إلى استنتاج ما يلي: إن النص القرآني تلفظ بالقول الكنائي"

---

[1] -سورة الكهف، الآية رقم 11.

[2] -ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، تح ساسي بن محمد السلامة،دار طيبة، الرياض،مج5،ط1999،2، ص139

[3] -الطبري: جامع البيان، ج17، ص 204.

[4] -سورة الكهف، الآية رقم 42.

[5] -الفخر الرازي: التفسير الكبير ، مفاتيح الغيب، دار الكتاب العلمية، بيروت ط1، د،ت، ج21، ص129.

[6] -تفسير التحرير و التنوير، ج15 ص 327.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

يُقلّب كفّيه" يريد وصف مشهد الحسرة من خلال الإحالة على ملزوم تقليب الكفّين، و هذا يستلزم تغييرا في النسق الداخلي للألفاظ أي بتغيير خارجي هو تغيير إحالي للصفات في الواقع مع إمكانية تحقق هذه الإحالة؛ لأن تقليب الكفين قد يتحقق بحكم أن الإنسان قد يتلق نبأ مفرحا؛ و لكن إذا حصرنا معنى "تقليب الكفّين" في معنى الحسرة و الأسف لا يكون المتكلم قد أنجز الفعل الكلامي بصورة غير مباشرة ألا وهو الحسرة و الندم؛ بل يكون المتلقي قد أدرك هذا المعنى و اقتنع به تبعا لذلك بالفعل الانجازي غير المباشر.

3-**التشبيه:** يعتبر التشبيه آلية لغوية تلميحية يستعملها المتكلم لتمرير خطابه و تحقيق وجوده عبر منظومة التخاطب اللغوي؛ ولعل استعماله المرتبط بالمكون الدلالي يتولّد عنه إمكانات دلالية تُتيحها لغة الخطاب القرآني ؛ و يعرّف الزركشي التشبيه بأنه: " إلحاق شيء بذي وصف في وصفه ألا و هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو أوصاف الشيء الواحد: كالطيّب في المسك، و الضّياء في الشّمس، و النّور في القمر ، و هو حكم إضافي لا يرد إلا بين الشيئية ، بخلاف الاستعارة " ([1])؛ و عرّفه أحد المُحدثين بأنه:"بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة، و أركان التشبيه هي: المشبه و المشبه به وأداة التشبيه و وجه الشبه، و يجب أن يكون أقوى في المشبه به منه في المشبه" ([2])، و لذلك يستعمل المتكلم التشبيه عبر عدة طرق ذهنية استدلالية لأداء فعل انجازي غير مباشر؛ فقوله تعالى:"وَ إِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ " ([3]) ؛ يقول الرازي مُعلّقا على خطاب الآية: " المُهل هو درديّ الزيت أو ضرب من القطران، ثم قال تعالى (بئس الشراب) أي أن الماء الذي هو كالمهل بئس الشراب لأن المقصود شرب الشراب تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغا عظيما"([4])؛ ويشرح الطاهر بن عاشور (المهل) بقوله:"المهل هنا أنه درديّ الزيت، فإنه يزيدها التهابا...والتشبيه في سواد اللون و شدة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقب بقوله(يشوي الوجوه) و هو استئناف ابتدائي ([5])؛ و يذهب الطبري مفسرا معنى "المهل" قائلا: المهل هو ماء غليظ مثل درديّ الزيت..."([6]).

[1] -الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 472.
[2] -علي الجازم: البلاغة الواضحة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1981، ج21، ص121.
[3] -سورة الكهف، الآية رقم 29.
[4] -الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ط1، ج20، ص 122.
[5] -تفسير التحرير و التنوير، ج15، ص308.
[6] -الطبري: جامع البيان، ج17، ص297.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

فالخطاب كما تضمنه تركيب الآية استخدم آلية التشبيه لإنجاز فعل كلامي غير مباشر بعد أن قام برصد المفاهيم الدلالية لكل مفردة في نسقها المعجمي و مقابلة كل واحدة بأخرى و إسقاط جميع تلك السمات، ثم تحويلها من حالتها المعجمية المُشكّلة لنسق الخطاب إلى سياقها التركيبي، و يعود ذلك إلى أن " علاقة المشابهة و المماثلة تفرض أن يكون هناك شيئين: أصل و فرع ، و لضبط العلاقة بينهما يُحلّل الأصل إلى مكوناته أو مقوماته أو صفاتها الذاتية و العرضية، فيختار بعضا منها لإسقاطه على الفرع و أن ما يسقط يجب أن يكون جامعا مُتفقا عليه بأنه وصف منضبط"([1]).

إن نظرة فاحصة في تركيب الآية نجدها قد استحضرت سمات المشبه الدلالية (سائل، شراب) ثم أسقطها على المشبه به(المهل)، و لما كان الأمر يتعلق بالكفار و معاناتهم في نار جهنم، فكلما استغاثوا من نارها و حرّها و طلبوا ماء للشرب ليصبّونه على أجسادهم للتبريد أعطوا هذا المهل تنكيلا و استهزاء بهم. فالفعل المستلزم من الظروف الإنجازية يُدلّل على عذاب أهل النار. و من أمثلة التشبيه-أيضا- الذي ورد في سورة الكهف قوله تعالى: " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ "([2])؛ يقول الزركشي و هو يشير إلى ما في هذا التشبيه من روائع و بدائع: قال بعضهم شبّه الدنيا بالماء، و وجه الشبه أمران:

أحدهما: أن الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت، و إن أخذت قدر الحاجة انتفعت به، فكذلك الدنيا.

و ثانيها : أن الماء إذا أطبقت كفّك عليه لتحفظه لم يجعل منه شيئا، فكذلك الدنيا، و ليس المراد تشبيها بالماء وحده؛ بل المراد تشبيهه ببهجة الدنيا في قلّة البقاء و الدوام بأنيق النبات الذي يصير بعد تلك البهجة و الغضاضة و الطراوة إلى ما ذكرناه"([3])؛ و يشرح الطاهر بن عاشور هذه الإستراتيجية اللغوية على نحو تفصليّ، فيقول:" تشبيه معقول بمحسوس، لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة. و شُبّهت أيضا هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب و زخرف العيش لأهله، ثم تقلُّص ذلك و زوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا بهيئة إقبال الغيث منبث الزرع، و شأنه عنه و نضارته و وفرته ثم أخذه في الانتقاص و انعدام التمتع به، ثم تطايره أشتاتا

---

[1] -محمد مفتاح: مجهول البيان، دار توبقال، المغرب، ط1، 1990، ص40.

[2] -سورة الكهف، الآية رقم 45.

[3] -الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص408.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

في الهواء، تشبها لمركب بمحسوس و وجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيء" ([1]).

لعلنا بحركة ذهنية وعمليات استدلالية ذات الطابع اللغوي و غير اللغوي نستطيع استحضار بعض السمات الدلالية المرتبطة بالمشبه (حال الدنيا) التي منها:بهجتها، نضارتها، ذهاب حسنها، تلاشي رونقها، و التي يمكن أن تشترك فيها مع غيرها من الكائنات الحيّة مثل النبات في خضرته و نضارته و وفرته و انتقاصه ثم تطايره وانعدامه. أما السمة الإضافية التي اختارها النص القرآني و التي هي الأكثر تميّزا في سياقه التركيبي العام هي التوسل بآلية التشبيه لتحقيق فعل كلامي غير مباشر و هو الانعدام و الفناء.و بهذا كله يبقى التشبيه إحدى الاستراتيجيات التلميحية المهمة التي تسعى إلى إيضاح دلالة النصوص و معانيها و إبراز مفهومها عبر عدة طرق استدلالية و بشكل صحيح غير مبهم.

هذه هي طبيعة الخطاب القرآني فهو يرتكز أساسا على اختياراته اللغوية و طريقة توزيعها لتصريف المعاني و الدلالات، فهو إذن، حدث لغويّ هدفه تحقيق الانسجام و التماسك بين أجزاء وحداته من خلال توظيف آليات جمّة تُساعده على القبض على المعاني الواردة و الدلالات الراجحة؛ و إن كانت ظواهره الأسلوبية معجزة في إبداعها، لأن ذلك راجع إلى ما ينماز به من مواصفات تركيبية و دلالية، و من طاقات تداولية و تأويلية تفضي به إلى تجاوز البعد الأحادي المُقنّن ليمتد إلى الخطاب في شموليته .

[1] -تفسير التحرير و التنوير، ج185، ص 332/331.